على اسم جمال عبد الناصر

كأن أحدا لم يأت بعده إلى حكم مصر ، وكأنه يسكن المستقبل لا الماضى ، فالنخب تختلف حوله ، والناس العاديون يشتاقون إليه ، وتهاجر نفوسهم المتعبة إلى زمنه ، وكأنه لم يزل بيننا ، كأنه لم يمت بعد ، أو كأنه مات أمس ، رغم أن جمال عبد الناصر رحل إلى رحاب الله ، ووري الثرى فى ضريح كوبرى القبة قبل ثلاثة وأربعين عاما مضت ، وفى مشهد جنائزى محتشد بملايين لم تخرج مثلها فى وداع أحد على مدار التاريخ الإنسانى .

لا نتحدث عن عبد الناصر الذى كان ، بل عن عبد الناصر الذى يكون ، والذى ترتفع صوره الآن فى مصر ، وكأنها إشارة إلى الحلم المفقود ، فلم تظهر فى هبات مصر الكبرى المتتابعة منذ ٢٥ يناير ٢٠١١ ، وعلى موجات توالت وصولا إلى ذروتها الثورية فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، لم تظهر سوى صورة قائد تاريخى واحد هو جمال عبد الناصر ، وبدت الظاهرة مفاجئة لمراقبين ، فقد تعرض اسم عبد الناصر لهجوم بالغ الضراوة خلال أربعين سنة مضت ، ومنذ بدأت الحملة ضده عقب حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكستار من الدخان الكثيف ، يبرر ويحجب حقيقة ما كان يجرى وقتها ، وتسهيلا لمهام الانقلاب على خط عبد الناصر وثورته ، وهو الانقلاب الذى أعقب عبور جيش مصر الذى بناه عبد الناصر ، وتحطيمه لخط بارليف ، واجتراحه لمعجزة ، وكما أريد للسياسة أن تخذل وتخون دم المقاتلين ، فقد أريد للحرب أن تكون خاتمة لعصر عبد الناصر ، وأن يبدأ بعدها عصر آخر ، انحطت به مكانة مصر فى العالمين ، وبعد أن كانت مصر ـ عند خط أكتوبر ـ رأسا برأس مع كوريا الجنوبية فى معدلات التقدم والتصنيع والاختراق التكنولوجى ، أصبحت مصر الآن ـ بعد أربعين سنة ـ رأسا برأس أو ذيلا بذيل

مع "بوركينا فاسو" على مؤشر الفساد الدولى ، وكان هذا الانحطاط العظيم هو الوجع الذى فجر موجات هائلة من الحنين لعبد الناصر ، وبالذات فى لحظة الخروج من القمقم فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ ، ثم بدت التطورات اللاحقة محبطة ، فقد صعدت جماعات اليمين الدينى، وهى أكثر كراهية لعبد الناصر فى الاسم والموضوع من جماعة مبارك الوارثة لانقلاب السادات ، وفى أول ظهور جماهيرى لمرسى الإخوانى بعد انتخابه رئيسا ، بدا مرسى كأنه يشمت ويتشفى فى عبد الناصر وعصره ، وعلى طريقة الغازى الفرنسى الذى تصور أنه يشمت ويتشفى فى صلاح الدين الأيوبى قاهر الصليبيين ، ووقف عند قبره فى دمشق قائلا "ها قد عدنا يا صلاح الدين"، والتى استعادها الإخوان على طريقة "ها قد حكمنا يا عبد الناصر" ، وبعبارة مرسى الشهيرة عن "الستينيات وما أدراك ما الستينيات"، وكانت تلك سقطة مرسى الأولى التى بشرت بخلعه شعبيا خلال عام واحد ، رغم أن مرسى حاول تدارك الأمر فى مناسبات لحقت ، وبإشادته بدور "الزعيم" عبد الناصر فى مؤتمر طهران لدول عدم الإنحياز ، ثم بعدها فى احتفال بعيد العمال فى مصنع الحديد والصلب الذى أنشأه عبد الناصر، وقال الرئيس الإخوانى وقتها أنه "سيكمل ما بدأه عبد الناصر"، وكانت تلك كلها ألعابا فى الوقت الضائع ، وتلاعبات بمشاعر الرأى العام الذى يدرك سر عداوة الإخوان لعبد الناصر ، فما من زعيم يعبر عن اسم مصر بأكثر من اسم جمال عبد الناصر ، وما من قوة كراهية لاسم مصر بأكثر من الإخوان ، ولن ينسى المصريون لمرشدهم السابق مهدى عاكف عبارته القبيحة القائلة "طظ فى مصر"، ثم أن الإخوان ـ وهذا هو الأهم ـ قوة يمينية معادية بالخلقة لاختيارات عبد الناصر الثورية ، وهم جماعة تتقارب ـ إلى حد التطابق ـ مع جماعة مبارك ، وقد بدا عناق المصالح ظاهرا بين الجماعتين، وجعلهما معا فى خانة القوى المضادة لثورة يناير كما ثورة يوليو ، وما من تنافس بينهما ولا عراك سوى فى خدمة اختيارات عصر الانحطاط العظيم ، والتى تتلخص فى الولاء للأمريكيين

وخدمة أمن إسرائيل ورعاية مصالح رأسمالية المحاسيب ، وهذه حقيقة لم تكن ظاهرة لسواد المصريين من أول لحظة ، وكان ضروريا أن يجرب الشعب المصرى محنة حكم الإخوان ليدرك الحقيقة المرة ، ولكى يلمسها بأطراف أصابعه ، فقد اختبأ الإخوان وراء ستار كثيف من الشعارات الدينية، وتحدثوا عن "مشروع إسلامى" سرعان ما تكشف أنه "المشروع الأمريكى" نفسه ، وهو ما انتهى بالمصريين للعودة إلى الشارع ، وبعشرات الملايين الغاضبة الراغبة فى إنهاء الخديعة ، وبصورة غير مسبوقة على مدى التاريخ الإنسانى بإطلاق عصوره وثوراته ، وبدت صور عبد الناصر أعظم كثافة هذه المرة فى ٣٠ يونيو ٢٠١٣ ، وكأن صورة عبد الناصر هى "تميمة الثورة "المحفوظة فى القلوب والمرفوعة فوق الحشود .

وقد حسم ظهور صور عبد الناصر نزاعا بدا ظاهرا بين النخب منذ الأيام الأولى للثورة المصرية المعاصرة ، فقد أراد البعض تصوير الثورة الجديدة كانقلاب على الثورة القديمة ، وردد البعض كالببغاوات عبارة الثورة على حكم الستين سنة ، وكأنه يمكن وضع عبد الناصر مع السادات فمبارك بالسياق نفسه، أو كأن ثورة يناير هى الانقلاب الشعبى على ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكأن أحدا لم ير ولا سمع عن انحطاط الأربعين سنة الأخيرة ، والذى كان نتيجة مباشرة لانقلاب السادات فمبارك على ثورة يوليو فى طبعتها الناصرية الأصلية، وجاءت ثورة يناير - بموجاتها المتلاحقة - كانقلاب على زمن الانحطاط ، وكرغبة فى وصل ما انقطع مع عصر الزهو المصرى الذى اتصل حتى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وبإدراك أصيل لأثر متغيرات الزمن ، فلم تجئ ثورة يناير كنسخة مطابقة لثورة يوليو ، بل لتواصل نهجها وتتصل بروحها ، وبحركة الناس الأحرار هذه المرة ، وليس بحركة الضباط الأحرار ، وبإضافة القيمة الديمقراطية لقيم الاستقلال الوطنى والتصنيع الشامل والعدالة الاجتماعية والتوحيد القومى

والتجديد الحضارى ، وكانت صورة عبد الناصر هى همزة الوصل بين ثورتين ، وهى الطريقة الشعبية فى كتابة التاريخ الصحيح للدراما المصرية المتصلة فصولها، ثم أن صورة عبد الناصر بدت كاحتياج فى اللحظة وإشارة للمستقبل ، فهى تعبر عن رغبة سواد المصريين فى رؤية قائد للثورة على مثال عبد الناصر ، والأسباب ليست خافية ، ولا تتصل فقط بمقاصد الثورة المصرية المعاصرة ، والتى عكست نفسها فى شعارات العيش والحرية والعدالة الاجتماعية والكرامة الإنسانية ، وهى مقاصد ألصق بروح ثورة يوليو ، وإن طمحت لإغنائها والإضافة إليها ، ووسط مصاعب تتصل بطبيعة الثورة المصرية المعاصرة نفسها، فالثورة تقوم ولا تحكم ، وهكذا هو حالها إلى الآن ، الثورة بلا قيادة مطابقة ، وهو ما يستدعى وجها آخر للحنين إلى صورة عبد الناصر ، نعم يدرك الناس أن عبد الناصر مضى ولن يعود ، لكنهم يريدون قائدا آخر على صورته ، وكان هذا الشعور الباطن الظاهر وراء شعبية بدت مفاجئة لقيادات ظهرت على مسرح السياسة ، ففى انتخابات الرئاسة الأولى بعد ثورة يناير ، وبرغم اختلال مشهد السياسة ، وتناقضه بشدة مع مشهد الثورة ، وغلبة قوى اليمين المعادى بشدة لسيرة عبد الناصر ، والمزاج الانتخابى الذى كان سائدا وقتها ، والمنجرف إلى تصديق أوهام وخرافات اليمين الدينى بالذات ، رغم كل هذه الظروف المعيقة ، حقق المرشح الرئاسى حمدين صباحى نجاحا مدويا ، وكان مفاجأة الانتخابات كلها ، فقد حل ثالثا فى الجولة الأولى بعد محمد مرسى مرشح جماعة الإخوان وأحمد شفيق مرشح جماعة مبارك ، برغم أن حملة صباحى كانت الأضعف بامتياز مالا وتنظيما بين حملات المرشحين الخمسة الكبار، ولم تصل نفقاتها إلى واحد بالمئة من انفاق حملة مرسى أو حملة شفيق ، وبدت الأرقام متقاربة ، فقد حاز مرسى على خمسة ملايين و ٧٠٠ ألف صوت ، وحاز شفيق على خمسة ملايين و ٣٠٠ ألف صوت ، بينما حاز صباحى على أربعة ملايين و ٨٢٠ ألف صوت ، أى قرابة الخمسة ملايين صوت ، وكان الأهم من عدد الأصوات هو جغرافيا التصويت،

فقد حل حمدين صباحى فى المركز الأول بالقاهرة والإسكندرية، وكان تصويت مدن الثورة الكبرى حاسما لصالحه ، وكان الأول بامتياز فى إجمالى تصويت العاصمة والوجه البحرى ومدن القناة ، ولم يخذله غير تصويت "الصعيد" الذى كان منفصلا وقتها عن قضية الثورة وحوادثها ، بينما لم يعد الأمر كذلك تماما فى الصعيد الآن مع موجة الثورة الثالثة فى ٣٠ يونيو ، كان رأسمال صباحى الأهم - ولا يزال - هو إيحاءات عبد الناصر فيه، وهى ذاتها - أى إيحاءات عبدالناصر - التى تجعل من الفريق أول عبد الفتاح السيسى بطلا شعبيا فى مصر اليوم ، فالسيسى هو الأكثر شعبية الآن، ولو ترشح للرئاسة فى انتخابات مقبلة ، فسوف يفوز بالضربة الشعبية القاضية ، وقد تصل نسبة فوزه إلى تسعين بالمئة ، وشعبية السيسى لاتعود إلى كونه قائدا للجيش ، فقد كان المشير طنطاوى من قبله قائدا للجيش ، ولمدة تطاولت إلى ربع قرن ، ولم تكن له هذه الشعبية الفياضة ، ولا حتى نصفها ، والسبب ظاهر ، فالسيسى له صفة رمزية أكثر تأثيرا ، وإيحاءات عبد الناصر أكثر ظهورا فيه ، وكثيرا ما تقترن صوره بصورة عبد الناصر أكثر الغائبين حضورا .

"القدس العربى " فى ٣٠ من سبتمبر٢٠١٣